محمد محفوظ

في تجارب المصلحين

حينما نتحدث عن تجربة دينية أو فكرية أو سياسية , و نعمل على تظهير العناصر الايجابية و نقاط القوة فيها , هذا لا يعني خلو التجربة من مطبات أو عيوب أو نواقص , لأن هذه من طبائع الأمور . و في إطار استفادة الأجيال اللاحقة من هذه التجارب , تتأكد الحاجة إلى تظهير عناصر القوة و مؤشرات التميز في هذه التجربة أو تلك . لأن هذا التظهير هو سبيل أخذ العبر و الدروس من هذه التجارب في كل مراحلها و أطوارها . و هذا الكلام ينطبق على كل التجارب سواء كانت دينية أو ثقافية أو اجتماعية .وتنوع هذه التجارب لايلغي حاجة المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة إلى الانفتاح والتواصل مع هذه التجارب بصرف النظر عن مآلاتها ونتائجها المباشرة . ففي كل الأحوال تتأكد حاجة الأمة الدائمة لفحص و قراءة تجارب علماء الأمة و لا سيما من خاض غمار التحدي و تصدى لشؤون الأمة المختلفة في ظروف و أوضاع حساسة و دقيقة على المستويات الثقافية و السياسية و الأمنية .

وفي سياق ضرورة الاهتمام بمعرفة تجارب الإصلاح في الأمة جدير بنا أن نتوقف عند النقاط التالية :

1. الأمم الحية هي التي تحتضن عظماءها و فعالياتها و زعاماتها , و تعمل على الاستفادة منهم إلى أقصى حدود . أما الأمم الميتة و الخاضعة لتأثير ثقافات الجمود و الاجترار , فهي تعمل على عرقلة مسيرة الإصلاح و محاربة المصلحين , و إطلاق حروب الأوراق الصفراء ضدها , كوسيلة فعالة لمنع أتساع تأثير هذا المصلح سواء على الصعيد الشخصي المباشر أو على صعيد خياراته العامة و أفكاره و أطروحاته الفكرية و الحضارية .

و أحسب أن ما تتعرض إليه مشروعات الإصلاح وشخصياته من حروب متعددة و تشويه متعمد تشترك فيه لاعتبارات عديدة جهات متنوعة , ساهم في منع بعض شرائح الأمة من الاستفادة من هذه التجارب و الاستزادة من فكر و توجيهات ودروس هذه التجارب .

و هذا يحمل شرائح الأمة المختلفة مسؤولية صياغة رؤية حضارية في التعامل مع علماءها و مصلحيها , بحيث لا يتم الاشتراك في تعويق عجلة الإصلاح في الأمة , تحت يافطات و عناوين ليست دقيقة و تساهم في عملية التسقيط المادي و المعنوي لكل راية و تجربة تحمل مشعل النور و التنوير في الأمة ..

و تعلمنا مختلف التجارب أن الأمة بكل فعالياتها تتحمل مسؤولية دينية و اجتماعية و أخلاقية للوقوف في وجه كل الأطراف التي تشن حروبا ظالمة على المصلحين في الأمة . فلا يجوز الصمت و التواري عن الأنظار في المرحلة التي تتجه فيها بعض الإرادات لاستهداف تجارب الإصلاح في الأمة . و أدنى ما يمكن أن تقوم به شرائح و فئات الأمة المختلفة هو عدم الاشتراك في مشروع الاغتيال المعنوي لأي شخصية تحمل هم الإصلاح و تعمل من أجله .

2. تجارب الإصلاح الديني و الثقافي و السياسي في الأمة , ليست تجارب نهائية و مقفلة , و إنما هي تجارب مفتوحة على كل العطاءات التي تساهم في إدامة و استمرار هذه التجارب من جهة , و من جهة أخرى مفتوحة على الإضافة و مشروع التراكم المعرفي و الفكري . لذلك ثمة ضرورة معرفية و تاريخية لتزخيم التجارب الإصلاحية في الأمة بعطاءات نوعية , متميزة , ترفد الساحة بالمزيد من الرؤى و الأفكار التي تستهدف تحرير الأمة من ربقة التخلف و الاستقالة من المسؤولية . و كما يقول احد المصلحين [فعندما نكون أمة العقل , لا أمة الانفعال , و أمة الإرادة لا أمة الاسترخاء , و امة اقتحام المستقبل , لا امة النوم في انتظار المستقبل , فإننا نستطيع أن نتقدم] ..

3ـ ثمة ضرورات عديدة ذاتية و موضوعية , تؤكد أهمية أن يلتقي أهل النور و التنوير و التجديد في الأمة مع بعضهم البعض , لتبادل الآراء و الخبرات , و تطوير نسق التعاون و الوصول بمشروع الإصلاح و التجديد إلى مديات واسعة .. فما يطمح إليه أهل التجديد و الإصلاح في الأمة , لا يمكن لأي طرف بوحده أن يفي بحاجاته و متطلباته , ولا خيار أمام الجميع إلا العمل على بناء كتلة واسعة من الإصلاحيين تنسق مع بعضها البعض و تدعم و تسند بعضها البعض و تدافع عن بعضها البعض و تعمل بشكل مشترك لبناء مشروعات مشتركة تعزز من خيار الإصلاح و التجديد في الأمة. و ذلك [لأن الانسان في المفهوم الإسلامي يمثل المخلوق الذي يتصل العمل بكل موقع من مواقع وجوده بحيث يمثل العمل , مسؤولية كل طاقة من طاقاته , بحيث إنك ستسأل عما عملت في عمرك , و عما عملت في شبابك , و عما عملت في عملك , و عما عملت في مالك , و عما عملت في كل ما يحيط بك ليكون العمل هو حركة المسؤولية في كل حياة وهذا ما نؤكده فيما نستوحيه من التأكيد في القرآن الكريم على العمل كأساس لسلامة المصير إذا كان العمل إيجابيا و على العمل كأساس لابتعاد المصير عن خط السلامة إذا كان سلبيا .

[فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * و من يعمل مثقال ذرة شرا يره] .. (الزلزلة 7 . 8) .. ولابد أن نتذكر جميعا : إن أمة لاتدافع عن مصلحيها لا تبلغ الرفعة والتمكين , وان امة لا تقرأ تجارب مصلحيه , ستصاب بالضمور والتآكل الداخلي .